لو عاد المسيح في عصر كورونا

د. ماجد عزمي
استشاري في الطب النفسي،
أسيوط، مصر

السؤال المفخّخ هو السؤال الذي يحتمل إجابتين، كلاهما يضعك في مشكلة. كثيرًا ما تلقّى يسوع أسئلةً مثل هذه كي يوقع به مَن يتربّص به. واحد من هذه الأسئلة كان السؤال الذي طرحه عليه الفريسيّون مستفسرين في خبث: «أَيَجُوزُ لَنَا أَنْ نُعْطِيَ جِزْيَةً لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟» (لوقا ٢٠/٢٢). الفخّ، هنا، يكمن في أنّ الإجابة بنعم تعني الخضوع لقيصر وتحطيم صورة المخلّص أمام الشعب. والإجابة بلا ستُسعد الشعب، لكنّها ستهيّج السلطات الرومانيّة وتحرّكها للقبض على يسوع. جاءت المفاجأة القاسية عندما ذهب يسوع إلى ما وراء السؤال السطحيّ البسيط نحو الإشكالية التي طالما حيّرت البشر: العلاقة بين الايمان والانتماء الدينيّ، من جهة، وبين الانتماء للأسرة والمجتمع والدولة وأخيرًا للبشريّة، من جهة أخرى. هل يتعارض إيماني بالله وبالحياة الأبديّة وتطلّعي إلى الموطن السماويّ المنتظر مع علاقتي بموطني الأرضيّ وحياتي فيه وارتباطي بالعلاقات الإنسانيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة؟ في تحرّك سريع، طلب يسوع دينارًا – العملة المستخدمة آنذاك – وسأل الجمع بوضوح: «لِمَنِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟ فَأَجَابُوا وَقَالُوا: لِقَيْصَرَ. فَقَالَ لَهُمْ: أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلهِ للهِ».

سَكَت المشتكون بعدما تعجّبوا من منطق يسوع. فهو، بحكمة شديدة وواقعية أشدّ، أرجع الأمور الدنيويّة المادّيّة الخاصّة بمبادىء البشريّة وأنظمة الإدارة إلى الحكومات متمثّلةً في قيصر أو في القيادات البشريّة التي وضعها الله، وذلك كما يكتب الرسول بولس في الإصحاح الثالث عشر من الرسالة إلى رومية (٣-٧): «فَإِنَّ الْحُكَّامَ لَيْسُوا خَوْفًا لِلأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَل لِلشِّرِّيرَةِ (...) لِذلِكَ يَلْزَمُ أَنْ يُخْضَعَ لَهُ (أي للحاكم)، إِذ هُمْ خُدَّامُ اللهِ مُواظِبُونَ عَلَى ذلِكَ بِعَيْنِهِ. فَأَعْطُوا الْجَمِيعَ حُقُوقَهُمُ: الْجِزْيَةَ لِمَنْ لَهُ الْجِزْيَةُ. الْجِبَايَةَ لِمَنْ لَهُ الْجِبَايَةُ. وَالْخَوْفَ لِمَنْ لَهُ الْخَوْفُ. وَالإِكْرَامَ لِمَنْ لَهُ الإِكْرَامُ».

المبدأ ذاته الذي نراه في أقوال يسوع نراه أيضًا بوضوح لدى التلاميذ والرسل. الله يطلب القلوب والطاعة والخضوع، يطلب أن تسلّمه قلبك بالكامل وتخضع له وتطيع وصاياه. في الوقت ذاته، عليك أن تمتثل لقوانين مدينتك ووطنك، لسياسات القائمين على الحكم، أن تحيا كمواطن صالح في الأرض مثلما تحيا كابن لله في ملكوته وتحت سيادته.

البعض يشعر بازدواجيّة تجاه هذه الفكرة. فيفضّل طاعة الله فقط، ويمارس الانعزال عن أنظمة الدولة، ويتمرّد عليها، لأنّه يعتبر أنّه لا ينتمي إلى هذا العالم (بعض الترانيم الروحيّة تتحدّث عن هذا بوضوح) في حين يمارس آخرون النقيض، فيندمجون بالكلّيّة في النظام العالميّ الإنسانيّ متجاهلين حياتهم الروحيّة ومصيرهم الأبديّ. ربّما علينا أن ندقّق في كلمات يسوع، التي كانت جزءًا من صلاته قبل الصلب حين قال: «لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشرّير» (يوحنّا ١٥/١٧). عاش يسوع هذا التوازن بوضوح. امتدّت أيّام حياته على الأرض إلى ما يزيد على الثلاثين عامًا عاش خلالها في العالم، وعاش فيها ايضًا محفوظًا من الشرير. ويوم طلبوا منه سداد الضرائب – حتّى غير المستحقّة، قال لبطرس: «لِئَلاَّ نُعْثِرَهُمُ، اذْهَبْ إِلَى الْبَحْرِ وَأَلْقِ صِنَّارَةً، وَالسَّمَكَةُ الَّتِي تَطْلُعُ أَوَّلاً خُذْهَا، وَمَتَى فَتَحْتَ فَاهَا تَجِدْ إِسْتَارًا، فَخُذْهُ وَأَعْطِهِمْ عَنِّي وَعَنْكَ» (متّى ٢٧/١٧).

إنّ المسيحيّ مطالب بأن يعطي الوطن والعالم وقيصر حقّهم ما دام لا يتعارض مع طاعة الله، لأنّنا ما زلنا في الجسد تحت الآلام وما زلنا نخضع للخليقة التي فسدت بعد السقوط، فصارت تخرج لآدم وابنائه شوكًا وحسكًا وزلازل وبراكين وفيروسات وأوبئةً وموتًا. وما يزال البشر، ومن بينهم المسيحيّين، يكابدون نتائج إفساد التصميم الإلهيّ، هذا الإفساد الذي تمّ على يد آدم وحوّاء، هذا الإفساد الذي أفقد البشر حصانتهم من ويلات الطبيعة وآلام المرض، وحتّى من ظلم الانسان لأخيه الإنسان.

اختبر السيّد المسيح كلّ هذا عندما تجسّد وعاش بيننا على الأرض. لقد اختبر الجوع والعطش والظلم والوحدة وسوء الفهم وعدم الاستقرار والتعيير والشتم والتجريح، وأخيرًا الموت. طلب من الآب أن يجيز عنه كأس الآلام. ولكن، في الوقت ذاته، خضع لمشيئته وتجرّع الكأس حتّى الثمالة. حدث هذا قبل ألفي عام. ولكنّ مبادئ الله وقواعده لا تتغير. لذلك، لو عاش يسوع بيننا في هذه الأيّام واختبر الوباء والمرض، لكان سيطبّق القواعد السابقة ذاتها: كان سيتلقّى رسائل على هاتفه الخليويّ في تطبيق

الواتساب تقول له: «يَا سَيِّدُ، هُوَذَا الَّذِي تُحِبُّهُ مَرِيضٌ» (يوحنّا ٣/١١). وكانوا سيتعجبّون من عدم حضوره رغم رؤيته الرسالة وظهور علامة «تم تسليمها... قُرئت» (Delivered...Seen) على الرسالة. بعدها كانوا سيرسلون رسالةً أخرى: «نرجوك أن تدبّر لنا مكانًا في العناية المركّزة»، أو «لما لا تطلب من الآب فيرسل جيشًا من الملائكة يحملون اللقاح» (راجع متّى ٥٣/٢٦) وغيرها من الرسائل التي ستثقل قلبه قبل هاتفه.

كان سيجيب برفق ويشرح أنّه لم يأتِ ليشفي العالم من الاوبئة، بل ليشفي الإنسان من الخطيئة. وهو الأمر الأهمّ والعلاج الجذريّ الذي سيمكّن الإنسان من العودة إلى التصميم الإلهيّ الأصليّ. هو موجود لخلاص مختاريه الذين سيذهب بهم إلى السماء الجديدة والأرض الجديدة. لا فائدة من إصلاح ما هو موجود. لا بديل عن الخليقة الجديدة. إصلاح النموذج الذي تمّ إفساده لا طائل منه. لذا، يجب الانتقال إلى البديل المعدّ في الخلاص المقدّم على الصليب. وعندما سيسألونه عن الراحة الموعودة، سيجيب باسمًا: «الراحة هي من عبوديّة الخطيئة ومن قيد إبليس ومن عقوبة الموت، لا من الأمراض وأتعاب العالم. الراحة النهائيّة هناك. أخبركم عنها تلميذي يوحنّا عندما رأى لمحةً منها أثناء وجوده في بطمس. لقد رأى الرجاء المنتظر وكتب أنّ الموت لن يكون في ما بعد ولن يكون صراخ ولا وجع ولا كورونا».

كان يسوع سيجول في أيّامنا هذه يصنع الخير مرتديًا الكمّامة الواقية ومطيعًا أوامر السلطات بالتباعد الاجتماعيّ. كان سيعلّم التلاميذ أن يغسلوا أيديهم في عشرين ثانية. كان سيبكي على أصدقاء ماتوا بالوباء ولم يتمّ إنقاذهم رغم تقواهم مثلما بكى بكلّ تأكيد على يوحنّا المعمدان عندما قطعوا رأسه في السجن. وعندما يسألونه: «لماذا لم تنقذ قريبك المعمدان حين أرسل لك رسالةً طلب فيها معونة مستتر؟» (برأيي إنّ سؤال يوحنّا ليسوع «هل أنت هو أم آخر ننتظر؟»، يشير بشكل مستتر إلى طلب معونة من يسوع لينقذه من السجن)، سيجيب - بعد لحظات من الصمت الحزين - أنّ «الله لديه طرق وأحكام أبعد من طرق الإنسان وأحكامه. ليس بالضرورة أن يصنع الله معجزات لإنقاذ بنيه من الشرور الأرضيّة، سواء ظلم الإنسان أو قسوة الوباء، لأنّ غاية الله العظمى هي خلاص البشريّة واستعادتها. وهذه الغاية تمّت في الصليب، وبواسطتها سنلتقي في السماء مع يوحنّا المعمدان وكلّ الأحبّاء الذين فقدناهم بفعل نتائج الخطيئة وتبعاتها، وهذا هو الرجاء الذي كابدت لأجله الألم معكم». وإذا لمح خوفًا في عيون التلاميذ، سيوصيهم بألّا يخافوا ممّن يقتل الجسد سواء كان سلطات جائرة أو أمراضًا مستعصية، بل أن يجعلوا اهتمامهم بملكوت الله تاركين الله يعتني بكلّ الأمور المقلقة.

كان يسوع سيوقف اللقاءات الجماهيريّة في فترات الحظر ويعلّم الشعب أون-لاين أو من طريق الزووم، لكنّه لن يتابع كلّ يوم أخبار الوباء، بل سيتابع المخدومين الذين يرعاهم ليعينهم ويشدّدهم ويرفعهم وسط الإحباطات. كان سيشجّع الإجراءات الاحترازيّة ويحكي للجماهير كيف يحترز من يريد أن يبني برجًا ليحسب إذا كانت نقوده كافيةً أم لا، وكيف يحترز الملك ويحسب قوّته قبل الحرب القادمة ليعرف هل هي رادعة أم لا. بالتأكيد كان سيعيد صوغ المثل في زمن الوباء فيقول: «إن أردت أن تحفظ نفسك من المرض، فاحرص على ارتداء الكمّامة واستعمال المطهّرات. لا تخالطوا التجمّعات، والتزموا بالحظر والغاء اجتماعات الكنائس». وعندما يسأله مرتادو الكنائس الأتقياء: «لماذا لا نخرج ونجتمع في الكنائس متّكلين على حماية الله، الذي لن يرضى أن يصيب وباء أجسادنا؟»، سيجيبهم بعد تنهيدة طويلة مُستعيدًا حوار الشيطان معه في البرّيّة: «لاَ تُجَرِّبُوا الرَّبَّ إِلهَكُم».

سيصدم فكر يسوع المسيحيّين الذين حفظوا تعاليم مختلفةً عبر السنين تربط القداسة وطاعة الله بالسلامة والنجاة من الامراض. هذا الفكر الذي ربط، لعقود طويلة، الصحّة والرخاء بالقداسة والفقر والمرض بالخطيئة ترسّخ في اللاوعي المسيحيّ حتّى جاء الوباء الكاسح ليهزّ أعمدة هذه العقيدة. كثر من الاتقياء مرضوا وماتوا وكثر من الأشرار لم يصبهم المرض والوباء. سيسأل المؤمنون السؤال ذاته الذي طرحه جدعون قديماً: «أَسْأَلُكَ يَا سَيِّدِي، إِذَا كَانَ الرَّبُّ مَعَنَا فَلِمَاذَا أَصَابَتْنَا كُلُّ هذِهِ؟» (قضاة ١٣/٦). ومع تساؤل جدعون سيأتي استهجان آساف: «لأَنِّي غِرْتُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ، إِذْ رَأَيْتُ سَلاَمَةَ الأَشْرَارِ. لَيْسُوا فِي تَعَبِ النَّاسِ، وَمَعَ الْبَشَرِ لاَ يُصَابُونَ» (مزمور ٣/٧٣).

سيحكي يسوع عن جدعون وآساف كشخصين عاشا في العهد القديم ولم يصلهما الإعلان المتكامل وبشارة الخلاص. أمّا كنيسة

العهد الجديد، فلا بدّ لها من أن تعي أنّه يجب ألاّ تكنز لها كنوزًا على الأرض، وأنّ الجسد هو خيمة مؤقّتة، وأنّ الخلاص غايته واكتماله في السماء، وأنّ لعازر ربّما يمرض ويموت في بيت مريم ومرثا فيقيمه. ولكنّ هناك لعازر آخر على باب قصر الغنيّ سيمرض ويموت ولن يقيمه، بل سيرسله للتنعّم في أحضان إبراهيم.

سيؤكّد يسوع للجموع أنّ عليها أن تعيد مراجعة العقيدة والفهم في ضوء أنّ الحياة على الارض لا تزال خاضعةً لفساد الطبيعة وحكم قيصر. لذا، يجب أن تعي الكنيسة مطالب الحياة الأرضيّة المادّيّة للحفاظ على السلامة والصحّة. سيقصّ يسوع للجموع قصّة المولود أعمى ليخبرهم - كما أخبر التلاميذ - أنّ المرض لا يعني أنّ المريض خاطئ أو أبويه خاطئان، ولكنّ المرض هو التشوّه الذي صنعته الخطيئة في العالم. سيذكّرهم يسوع بأنّ الله غَضِب من تفسيرات أصدقاء أيوب حين أصرّوا على الربط المعيب الذي يجعل التوبة سبيلاً وحيدًا للشفاء. وعندما يريه بعضهم صفحات الفايسبوك التي تعتبر أنّ الوباء هو نهاية العالم، سيضحك بصوت عال ويقول: «الْحَقَّ أَقُولُ لكم اَسْهَرُوا، لأَنَّكُمْ لاَ تَعْرِفُونَ الْيَوْمَ وَلاَ السَّاعَةَ الَّتِي يَأْتِي فِيهَا ابْنُ الإِنْسَانِ» (راجع متّى ١٣/٢٥).

وفي نهاية اليوم، عندما يلتقي يسوع ببعض الأصدقاء المقرّبين في وقت حظر التجوال، سيخبرهم ببساطة وهو يكسر الخبز بعد نهار مرهق: «يا أصدقائي، الوباء يشير إلى أنّ الخليقة لا تزال خاضعةً للبطل (البطلان؟) الذي أصابها، والبشر سيعانون مختلف أنواع الألم، ولا استثناء لأولاد الله. لكنّ امتيازكم هو في معيّتي لكم ومرافقتي إيّاكم عبر مسيرة الحياة المؤلمة المؤقّتة التي ستنتهي في الأبديّة في السماء، في بيت الآب. ثمّ يضيف: «إنّ انتظار الأبديّة لا يعني عدم وجود دور لكم في الحياة الأرضيّة، تطوّعوا في فرق المساعدة الطبّيّة ولا تخافوا، قدّموا طعامًا لمن هم في العزل المنزليّ، قاوموا استغلال رجال الدين للبسطاء، حاربوا من أجل العدالة والسلام ونصرة الفقراء والمهمّشين، دبّروا الموارد لأصحاب العمالة اليوميّة الذين سيفقدون وظائفهم، اجتهدوا لدعم العلم للعثور على دواء يخفّف آلام المرضى ولقاح يحميهم، الحقّ أقول لكم إنّه إن فعلتم هذا بهم، فبي قد فعلتم».

وبعد أن يخلدوا إلى النوم، سينتفض فجأةً شاب يقبض على هاتفه الخليويّ بعد سماع إشعار تنبيهات آخر الأنباء، وسيذهب إلى يسوع النائم على وسادة في آخر الغرفة صارخًا: «يا سيّد، هناك موجة ثانية من الوباء، أما يهمّك أنّنا نهلك؟!». عندها سيجيبه يسوع بحبّ وحزم: «أعطوا لمنظّمة الصحّة العالميّة ما هو لمنظّمة الصحّة العالميّة، وما لله أعطوه لله».